﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنعام: 25]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربـطُ أحـوالِ المـشـركـين في الآخـرة ببيـانِ أسبـابِ الجهلِ والكفرِ والتَّكذيبِ

بعد أن بيَّن الحقُّ تعالى أحوالَ الكفّارِ في الآخرة أَتْبَعهُ بما يوجِبُ اليأسَ من إيمان بعضهم، فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾[1]، وهو كلامٌ مَسوقٌ لحكاية ما صدرَ في الدَّنيا عن بعض المشركين من أحكامِ الكفرِ، ثمَّ بيانِ ما سيصدر عنهم يوم الحشرِ؛ تقريرًا لما قبله، وتحقيقًا لمضمونه[2] - جاءت هذه الآيةُ لتبيِّن سببَ ما وصلوا إليه في هذه الحالة، وذلك بأنَّهم عندما كانوا يسمعون دعوة الرَّسول ﷺ كانت قلوبهم مغلَقةً لا يصل إليها النّور الإلهيُّ؛ لشدَّة إعراضِهم عنِ القرآن، ووصفِهم له بالأساطيرِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسْتَمِعُ﴾: السَّماعُ: هوَ إيناسُ الشَّيء بالأُذن منَ النّاس وكلِّ ذي أُذنٍ، تقول: سَمِعتُ الشَّيء سَمعًا، ويأتي بمعنى: الطَّاعة، فيُقال: سَمِعَ الأمرَ، إذا أطاعه، والسَّمع: قوَّةٌ في الأُذنِ بها تُدرك الأصواتُ، والسَّماع: اسمٌ ما استلذَّتِ الأذنُ من صوت حسن، ومن معانيه أيضًا: الإجابةُ، والفهمُ، والغناء، وما سَمِعتَ به، فشاع، وتُكلِّم به[3].

2) ﴿أَكِنَّةً﴾: الكِنانُ: الغطاء الَّذي يُكَنُّ فيه الشَّيءُ، والجمع

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/504.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/121، والآلوسّي، روح المعاني: 4/118.

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (سمع).

أَكِنَّةٌ، نحو: غطاءٍ وأَغطية. والكِنُّ: كلُّ شيءٍ وقى شيئًا، فهو كِنَّةٌ وكِنانَةٌ[1]. يعني في أَكِنَّةٍ عَلَيْها الغطاء، فلا تَفْقَه ولا تفهم ما تَقولُ[2]. والأَكِنَّةُ: جمعُ كِنانٍ بكسر الكاف، وهو وِقاءُ كلِّ شيءٍ وسَتْرُه، ويُجمعُ على أَكْنانٍ أيضًا، وكَنَّه وأَكَنَّه: سَتَره، قال أبو زيد: الثُّلاثيُّ والرُّباعيُّ لغتان في السَّتْرِ والإخفاء جميعًا، واستَكَنَّ: اسْتَتَر، وأَكننتُهُ في نفسي: سَترتُهُ وأضمرتُه، وسمّيتْ جَعْبَةُ السِّهام: كنانةً؛ لأنَّها تستُرها، فإذا أراد إخراجَها؛ نثرَها[3].

3) ﴿يَفْقَهُوهُ﴾: الفِقْهُ: الإدراكُ والعلمُ بالشَّيءِ، والفقيهُ: العالمُ، وكلُّ علم بشيءٍ فهو فقه. وقيل الفقهُ: إدراكُ دقائق الأمورِ، وأصلهُ: الفتحُ والشَّقُّ. ويأتي الفقهُ بمعنى: الفهم، يُقال: فَقِهتُ الحديثَ، أي: فهمتُه، وقيل: هو الفهمُ بعد الجهلِ. ويُستَعمَل أيضًا بمعنى: العقلِ، والفِطْنة[4]، يقال: فَقِه يفقَه؛ إذا فهمَ، وأَفقَه غيرَه؛ إذا أفهمَه، وفقُه يفقَه؛ إذا صار فقيهًا[5]. وقيل: الفقهُ يدلُّ على إدراكِ الشَّيء والعلم به، تقول: فَقِهْتُ الحديثَ أَفْقَهُهُ، وكلُّ علمٍ بشيءٍ فهو فِقهٌ، يقولون: (لايَفْقَه ولايَنْقَه)، ثمَّ اختصَّ بذلك علمُ الشَّريعة، فقيل لكلِّ عالمٍ بالحلال والحرام: فقيهٌ، وأَفْقَهْتُك الشَّيءَ؛ إذا بيَّنتُه لك"[6].

4) ﴿وَقْرًا﴾: الوَقْرُ: ثِقَلٌ في الأُذُن، أو هو ذهابُ السَّمع كلِّه، والثِّقل أخفُّ من ذلك، وأصلُ الوَقْر: ثِقلٌ في الشَّيء، يُقالُ: وقَر الشَّيءُ يَقِرُ وقْرًا، أي: ثَقُلَ، والوِقْرُ: الحِملُ، ومنه الوَقارُ: الحِلمُ والرَّزانةُ[7]، قال ابن عبّاس: صَممًا، وقال الضَّحّاك: ثِقلًا، وليس المعنى: أنَّهم لم يعلموا ولم يسمعوا، ولكنَّهم حُرِموا الانْتِفاعَ به، فكانوا بمنزلة مَن لم يعلم، ولم يسمع"[8].

5) ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾: الجدَلُ: شدَّةُ الخصومةِ، والمجادلةُ والجِدالُ: المناظرةُ والمخاصَمة، يُقال: جادله، أي: ناظرَهُ وخاصمه، ويأتي بمعنى الغَلَبةِ، وأصله منَ الجَدْل، وهو: القوَّة والصَّلابة، ومنه سُمّيتِ المناظرةُ جَدَلًا؛ لأنَّ فيها إظهارًا للقوَّة والشِّدَّة[9].

---

(1) الخليل، العين: (كنّ)، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (كنن)، والرّاغب، المفردات: (كنّ).
(2) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل: 1/419.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/85.
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، والزّبيدي، تاج العروس: (فقه).
(5) مكيّ بن أبي طالب، الهداية: 6/4463.
(6) ابن فارس، معجم مقاييس اللّغة: 4/442.
(7) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيدي، تاج العروس: (وقر).
(8) النّيسابوريّ، الوسيط في تفسير القرآن المجيد: 2/261.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (جدل).

6) ﴿أَسَٰطِيرُ﴾: الأساطيرُ: الأباطيلُ، والأساطير: أحاديثُ لا نِظامَ لها، واحدتها إسطارٌ وإسطارةٌ، بالكسرِ، وسطَّرها: ألَّفها، وسطَّر علينا: أتانا بالأساطير، يُقالُ: سطَّر فلانٌ علينا يُسطِّرُ؛ إذا جاء بأحاديثَ تشبه الباطل[1]، وهذه أُسطورةٌ من أساطير الأولين: مما سطَّروا من أعاجيبِ أحاديثِهم، وسطَّر علينا فلانٌ: قصَّ علينا من أساطيرهم[2]، وقال الزَّجّاج في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الفرقان: 5]، خبرٌ لابتداء محذوفٍ، المعنى: وقالوا الَّذي جاء به أساطير الأوّلين، معناه: سطَّرَه الأوَّلون، وواحدُ الأساطير: أسطورةٌ، كما قالواْ: أحدوثةٌ وأحاديثُ"[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيانُ أنَّ من المشركين من في أذنيهِ وقرٌ، يحجبهُ عن التَّأثُّرِ بالقرآن وتصديقِهِ

يُخبِرُنا تعالى أنَّ مِنَ أولئك المشركين، مَن لا ينتفعون بسماعِ القرآن الكريم من النَّبيِّ المبلِّغ، حيث جعلَ اللّه في آذانهم وقْرًا، وعلى أبصارهِم غشاوةً، وعلى قلوبهِم رانًا، فلا يتأثَّرون بالقرآن ولا يهتدون بنوره السّاري، وقد جُبلوا على المكابرةِ، وفُطروا على المنابذةِ، وتمرَّسوا على العناد الشَّديد، والجحود العتيدِ، ولم تُغْنِهم حُجَجٌ واضحةٌ، ولا براهينُ ساطعة، ولا بلاغة محكَمةٌ، ولا أحكامٌ ملهمَة، بل راحوا يجادلون النَّبيَّ الأكرم، ويتَّهمون الكتاب الأعظم بأنَّه أساطيرُ مقتبسةٌ عن السّابقين، وهم بذلك ينصرفون عن الحقِّ، وينهون النّاس عن اتِّباعه، ولا يدرون أنَّهم يضرّون أنفسَهم دون شعورٍ بالعواقب.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ عطفِ قوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ﴾ على قولهِ: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ﴾:

لا تعجلْ بالحُكْمِ على المضمونِ، فعندَ الخُبْرِ تنقطعُ الظُّنونُ

عُطِفَت جملة ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ﴾ على قوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾، لما بينهما منَ الاتِّصال؛ فهو من باب عطف جملة ابتدائيَّةٍ

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سطر).
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (سطر).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (سطر).

على الجمل الابتدائيَّة الَّتي قبلها من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ﴾، وفي هذا العطفِ إشارةٌ إلى أنَّ الحديثَ ما زال موصولًا عنِ المشركين الَّذين بدأ الحديث عنهم في أوَّل السّورة بقوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام: 1]، والمعنى: ومنَ الكفّارِ مَن يستمعُ إليك[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (من) التَّبعيضيَّة في قولِهِ: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ﴾:

مَـنِ استعملَ عـقـلَـهُ؛ أبـصرَ السَّبيلَ، ومن عـانـدَ؛ تنكَّبَ الحقَّ

التَّعبيرُ بـ (من) الَّتي تفيد التَّبعيضَ، فيه إشارةٌ قرآنيَّةٌ إلى تصنيف كفّارِ مكَّةَ، فليسوا كلُّهم على حالةٍ واحدة؛ فهناك مَن يجعلون أنفسهم منَ العقلاءِ الَّذين يربؤون بأنفسِهم عن أن يقابلوا دعوة الرَّسول ﷺ بمثل ما يقابلهُ به سفهاؤهم، منَ الإعراضِ التّامِّ[2]، بل يسمعون أوَّلًا، حتَّى يوهموا ضعفاءَ العقول، بأنَّهم رفضوا عن قناعةٍ لا عن حماقةٍ، فيستميلونهم إلى الإنكار والكفرانِ بطريقة ذكيَّةٍ، واستدراج ماكرٍ لئيم، وهذا منهجٌ واضحٌ في تضليل أئمَّة الكفر لأَتْباعهم، ينبغي الحذرُ منه في القديم والحديث، وهذا ما يفعلهُ المستشرقون وأعداء الإسلام في قراءتِهم للقرآن الكريم، يقولون: نحن نقرؤُه، ولكن نجد فيه تناقضًا وأخطاءَ من جوانبَ عديدةٍ في زعمهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بضميرِ الغَيبةِ ﴿وَمِنۡهُم﴾، للتَّهوينِ من شأنِ المشركينَ:

كـلُّ مـن عـانـدَ الـرَّسـول وأنكـرَ القرآنَ؛ آلَ إلى الهَلكةِ والهوان

التَّعبيرُ بالضَّمير فيه تسليةٌ للرَّسول ﷺ، وتهوينٌ من شأن هؤلاء المشركينَ؛ لأنَّ الرَّسولَ ﷺ، كان يَحْزُنُه عدمُ إيمانِهم؛ فعبَّر القرآنُ عنهم بالضَّميرِ؛ لبيان أنَّهم مع ادِّعائهم زعامةَ قريش؛ فهم عند اللّهِ لا وزنَ لهم؛ لأنَّهم في حكم الغَيبةِ. ويؤكِّد هذا المعنى ما رواهُ ابن عبّاسٍ بقوله: إنَّ أبا سفيان بن حرب، والوليد بن المغيرة، والنَّضْرَ بن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/178.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/279، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/12، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/179، والخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 4/150.

الحارثِ، وعُتبة وشَيبة ابنَيْ ربيعة، وأميَّة بن خلف؛ استمعوا إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ القرآنَ، فقالوا للنَّضْر: يا أبا قتيلةَ ما يقول محمَّد؟ فقال: والَّذي جعلها بيتَه (الكعبة) ما أدري ما يقولُ، إلّا أنّي أرى تحرُّكَ شفتيه يتكلَّم بشيءٍ، فما يقول إلّا أساطيرَ، مِثْلَ ما كنتُ أحدِّثكم عنِ القرون الماضية، وكان النَّضْر كثيرَ الحديث عنِ القرون الأولى، وكان يحدِّثُ قريشًا، فيستملحون حديثَه[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الإفرادِ في قوله تعالى: ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾:

إذا سُدَّت منافذُ الهدايةِ؛ انتهى صاحبها إلى أسوأِ نهايةٍ

في قوله تعالى: ﴿يَسْتَمِعُ﴾، جاء الفعلُ بصيغة الإفرادِ مراعاةً للَّفظ (مَن)؛ لأنَّ (مَن) الموصولة يجوز أن يُراعى معناها، وأن يُراعى لفظها، فإذا روعي معناها؛ جُعِل العائد عليها حسب ما يراد بالمعنى، وإذا روعي اللَّفظ؛ صار مفردًا[2]، فالقرآنُ لايصلُ إليهم أفرادًا وجماعة، لِلوَقْرِ الَّذي وُصِدَتْ به مسالكُ السَّمع لديهم، وقد تفاهموا فيما بينَهم على الإعراضِ، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصّلت: 26]، وعلى ذلك لايكون لاستماعِهم جدوى، ولا لدعوتهم فائدةٌ[3].

دلالةُ اختيارِ الاستماعِ (إليك) دون الجلوسِ أو الإتيانِ:

مَنْ ساءَتْ بالحقِّ نواياهُ؛ لم يتعرَّف على هدايةِ مولاهُ

عبَّر بالسَّماع دون الجلوسِ أو الإتيان؛ لأنَّ السَّماع يلزمُ منه ذلك، بخلاف الإتيانِ والجلوس؛ فلا يلزم منه السَّماع، فقد يأتي ولا يسمعُ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ سماعَهم ليس لغرضٍ محمود، بل لغرضٍ مذموم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالجارِّ والمجرور (إليك) بدلًا منَ (اللَّام):

عدل التَّعبيرُ القرآنيُّ عنِ اللّام إلى (إليك)؛ ليفرِّقَ بين نوعين منَ السَّماع؛ فالفعل المتعدّي باللّام يفيد سماعَ قبولٍ ورضا، قال

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/118، وطنطاويّ، الوسيط: 5/58.
(2) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة الأنعام، ص: 132.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5: 2472.

تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف: 204]، بخلاف المتعدّي بـ (إلى)؛ فإنَّه يفيد أنَّ سماعَهم لا يتجاوزُ زمان السَّماع ومكانه؛ فلا يصلُ إلى قلوبهم؛ فالغايةُ عندهم مجرَّد السَّماعِ، وليس الإيمان، وفيه إشارةٌ إلى إظهارِ المبالغة في السَّماع؛ كأنَّهم يسمعون إليك في كلِّ ما تقول.

لاينفعُ أن تكونَ الأذنُ سامعةً، والقلبُ في صَممٍ

إيثارُ كافِ الخطابِ في (إليك) من قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾:

آثَرَ القُرْآنُ الكَريمُ كافَ الخطابِ في قوْلِهِ: ﴿إِلَيْكَ﴾ للإشعار بعلوِّ قدرِهِ ﷺ، وأنَّه في محلِّ الخِطاب، وكان عليهم أن يسمعوا سماعًا حقيقيًّا، يصل بهم إلى الإيمانِ، فالعيبُ فيهم، وليس فيما تقولُ يا رسولَ الله ﷺ، وقد كان أصدقَ النّاس لهجةً، وأفصحَهم لسانًا، وأصدقَهم نُصحًا، وأسرعَهم تطبيقًا لما يقول على نفسِه، فكان الاستماعُ إليه مفيدًا ومؤثِّرًا، لو أنَّهم استمعوا إليه بإنصافٍ وصدقٍ، ولكنَّهم لا يشعرون بذلك، فَعَموا وصَمّوا.

رسـولُ اللـهِ قـدوةٌ وكـمـالٌ، والإصـغـاءُ إليه طاعةٌ للهِ ونوالٌ

دلالةُ التَّعبيرِ بالجَعْل مكانَ الخَلْقِ في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾:

عبَّر بالجَعْل للإشارة إلى أنَّ ما جعله اللهُ على قلوبهم منَ الأكنَّةِ، وفي آذانهم منَ الوَقْر؛ لعلم الله الأزليِّ القديم، بأنَّهم سيكونون على هذه الحالةِ من صمِّ آذانِهم، وإغلاقِ قلوبهم عن قَبول الدَّعوة الإسلاميَّة إلّا النَّزرَ اليسيرَ منهم؛ بخلاف الخَلْق، فقد يُتصوَّرُ أنَّ الأمرَ فُرض عليهم، ولا دخلَ لهم فيه، ومعاذَ الله أن يظلمَ ربُّك أحدًا.

مَنِ انغلقَ قلبُه عـن الـهُـدى، تـخـبَّـط في الـضَّـلالـةِ وما اهتدى

دلالةُ الجارِّ والمجرورِ في قوله: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾:

(على) تفيدُ الاستعلاءَ، والمرادُ: استعلاءُ الأكنَّة على القلوب، وبذلك تكون تحت الغطاءِ، وتمكَّنت منه، بحيثُ لا يصل إليه شيءٌ، ولعلَّ السِّرَّ في ذلك، أنَّهم قالوا في سورة فصِّلت: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصّلت: 5]؛ ليُعْلِنوا إعراضَهم التّامَّ عن سماع القرآن؛ فلمّا قالوا ذلك؛ عاقبَهم الله تعالى، بأن جعلَ

مَن طُمِسَ قلبُهُ لم تجدِ الهدايةُ إليه سبيلًا

الأكنَّةَ على قلوبِهم؛ بحيثُ تتمكَّن منهم؛ فلا يستطيعون إخراجَ ما فيها منَ الكفرِ.

دلالةُ اختيارِ لفظِ القلوبِ دونَ الأفئدةِ أو الصُّدورِ:

اختار القلوبَ لأنَّها محلُّ التَّكليف، قال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ﴾ [البقرة: 225]، ولأنَّها محلُّ الإيمان ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: 22]؛ ولأنَّها محلُّ القوَّة العاقلةِ، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ۝٤٦﴾ [الحجّ: 46]، إلى غير ذلك منَ الخصائص الَّتي تؤكِّد أصالةَ القلب، وأنَّ الفؤادَ والصَّدر تابعان له.

القلبُ موئلُ الإيمانِ، وجارحةُ الوصلِ بالرَّحمنِ

دلالةُ إضافةِ الضَّميرِ في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً﴾:

أضاف القلوبَ إلى الضَّميرِ؛ لإفادةِ التَّخصيص، وكأنَّها تشير إلى فريقٍ من مشركي مكَّة؛ هم الَّذين جعلَ اللهُ على قلوبهم أكنَّةً، وفي آذانهم وقْرًا، أمّا بقيَّة مشركي مكَّة؛ فدخلوا في دينِ اللهِ أفواجًا، وقد نصر اللهُ بهم الدّينَ، وهداهم إلى طريقه المستقيمِ.

من المشركين أشقياءُ هلكوا، وسعداءُ أسلموا وتألَّقوا

سرُّ تقديم السَّمعُ قبل الفقهِ:

من خلال قوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ﴾ وقوله: ﴿أَن يَفۡقَهُوهُ﴾ جاء تقديم السَّمع على الفقه؛ لأنَّه أوَّل عضوٍ يؤدّي وظيفته في الدُّنيا، فله سبقُ الوجود، ولأنَّ السَّمع مُتقدِّمٌ في الوجود على الفقهِ؛ إذ لا يَفْقَه الإنسانُ الشَّيءَ حتَّى يسمعه، فقدَّم في اللَّفظ ما هو مُتأخِّر في الوجود، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ السَّماع يشمل المكتوب وغيره؛ لأنَّ الدَّلائلَ السَّمعيَّةَ منها مسموعٌ، ومنها مكتوبٌ، وكلُّها راجعةٌ للسَّمع؛ لأنَّ المكتوب يُسمع قبل كتبه، وحينئذٍ يُكتب، ومعلومٌ أنَّ نفيَ الأعمِّ يستلزم نفيَ الأخصِّ، وثبوتَ الأخصِّ يستلزم ثبوتَ الأعمِّ ولا ينعكس، والمسموعُ أعمُّ؛ لأنَّ منه ما يُفهم، ومنه ما لا يُفهم، فلو قُدِّم أوَّلًا لكان نفيُ الفهم عنه تأكيدًا، فلمّا قيل: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ

نفيُ الأعمِّ يستلزمُ نفيَ الأخصِّ، وثبوتُ الأخصِّ يستلزمُ ثبوتَ الأعمِّ

﴿أَكِنَّةً﴾، انتفى عنهم الفهم، وبقي السَّمع بلا فهم، فبقي ثانيًا، وكان تأسيسًا. وأجابَ بعضهم: بأنَّ المرادَ الفهم بقصد، والسَّمع أصلُه، والمقصدُ أشرفُ منَ الوسيلة فقُدِّم للاهتمام[1].

التَّعبيرُ بالاستماعِ بدلًا منَ السَّماع في قوله: ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾:

عبَّر بالاستماعِ لأنَّه في الآية بمعنى الإصغاءِ المشوبِ بالاستعلاءِ والانتقاد، لا استماع تدبُّرٍ وانقياد، وهو لازم يعدَّى بـ (اللّام) و(إلى)، كما صرَّح به أهل اللُّغة، وقيل: إنَّه مُضمِّن معنى الإصغاءِ، ومفعوله مُقدَّرٌ، وهو القرآن[2].

الزِّيادةُ في المبنى تُفضي إلى زيادةٍ في المعنى

دلالةُ إسنادِ الفعل (جعل) للهِ تعالى:

وجهُ إسنادِ الفعل إلى ذاتِه تعالى في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ جاء للدَّلالة على أنَّه أمرٌ ثابتٌ فيهم، لا يزولُ عنهم، كأنَّهم مجبولون عليه، أو هي حكايةٌ لما كانوا ينطقون بهِ من قولهم: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصّلت: 5].

عـطـاءُ الـلـهِ لا ينتهي، وكـلُّ ما جعل؛ فلحكمةٍ يعلمُها هو

دلالةُ الفعلِ الماضي في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾:

دلَّ هذا التَّعبيرُ على أنَّ اللّه خلقهم على هذه الخصلةِ الذَّميمة والتَّعقُّل المُنحرِف؛ لعلمه الأزليِّ بما يكونون عليه، فهم لهم عقولٌ وإدراكٌ؛ لأنَّهم كسائر البشر، ولكنَّ أهواءهم تُزيِّن لهم المنعَ من اتِّباعِ الحقِّ، فالجَعْلُ بمعنى الخَلْق، وليس للتَّحويل من حالٍ إلى حال[3].

مَـن طَـبـعَ اللـهُ عـلى قـلـبـهِ، فلا أمـلَ لـهُ في دنيا ولا آخرة

تقديمُ قوله: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ على مفعوليهما:

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ وقوله: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ حيث إنّ قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، وقوله:

تـقـديـمُ دواعـي الـفـضـاضـةِ مـن انغلاقِ القلوب، وانسدادِ الآذانِ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/149.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 4/118.
(3) علويّ السّقّاف، الدّرر السّنيّة: التّفسير المحرّر للقرآن الكريم. (سورة الأنعام)، كتاب إلكترونّي غير مرقّم.

﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾ يتعلَّقان بـ ﴿وَجَعَلۡنَا﴾، وقدَّم كلًّا منهما على مفعول ﴿وَجَعَلۡنَا﴾، للتَّنبيهِ على تعلُّقه به من أوَّلِ الأمر، وهذا تمثيلٌ مُعرِبٌ عن كمال جهلهم بشؤون النَّبيِّ ﷺ، وفرط نَبْوَةِ قلوبهِم عن فهم القرآنِ الكريم، ومجِّ أسماعهم له[1].

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّة في قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً﴾:

والأكنَّةُ جمع كِنانٍ، وهي الأغطيةُ، والمعنى: أنَّه لا يصل الحقُّ إلى قلوبهم؛ لوجود ذلك الغطاء الحاجزِ المانع من أن يصلَ نورُه إلى قلوبهم، بل إنَّه لا يصلُ إلى مسامعهم، فقد جعلَ اللّٰه تعالى في آذانهم وقْرًا، والوَقْر، بفتح الواو ثِقَلُ السَّمع، وهذا النَّص كنايةٌ عن كمال الإعراضِ، فهم لا يصل إليهم القرآن، وقد تفاهموا فيما بينهم على الإعراضِ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فصّلت: 26]، وإذا وصل إلى سمعِهم فهنالك غشاوةٌ على قلوبهم، تمنعهم من أن يُشْرِقَ فيها نورُه، وعلى ذلك لا يكون لاستماعهم جدوى وفائدةٌ[2]. فمن خلال هذه الاستعارةِ، جُسِّمت الأمور النَّفسيَّة، وأصبحت ظاهرةً للعيان، يتأمَّلُها المتلقّي، ويلاحظها، فيزداد إدراكُه وفهمُه للمعنى المراد إيصالُه، ومن ثمَّ يحدث لديه التَّأثيرُ والإقناع، وهي الغايةُ من هذا التَّصوير.

الفِقهُ محلُّهُ القَلبُ، وبهِ تُفقَهُ الأحكامُ، وتُدرَكُ الحقائقُ

سرُّ الجمعِ بين الوَقْر والأكنَّةِ في الآية الكريمة:

قولهُ تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ﴾، ففي جعلِ الأكنَّةِ على القلوبِ، والوَقْر في الآذان، تشبيهٌ لِلحُجُبِ والموانعِ المعنويَّةِ بالحُجُبِ والموانعِ الحسّيَّة؛ فإنَّ القلب الَّذي لا يَفقهُ الحديثَ، ولا يتدبَّره، كالوعاءِ الَّذي وُضِع عليه الكِنُّ أو الكِنانُ – وهو الغطاءُ – حتَّى لايَدْخُلَ فيه شيءٌ، والآذان الَّتي لا تسمع الكلامَ

عدمُ الانتفاعِ بالسَّماعِ، هو لونٌ من ألوانِ الصَّممِ التَّامِّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/121، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/180.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2471.

سماعَ فهمٍ وتدبُّرٍ، كالآذان المصابةِ بالثِّقل أو الصَّمم؛ لأنَّ سمعَها وعدمَهُ سواءٌ، وفيه كنايةٌ في جعل الأكنَّة على القلوب، والوَقْر في الآذان، وهذا كنايةٌ عن نُبوِّ قلوبهِم ومسامعهم عن قَبول الحقِّ، والاعتقاد بصحَّتهِ[1].

سرُّ الجمعِ بين الوَقْرِ والأكنَّةِ في قوله: ﴿أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾:

جمع بين الوَقْر والأكنَّةِ؛ لتمثيل فَرْطِ بُعدهِم عن فهم الحقِّ وسماعه، كأنَّ قلوبَهم لا تعقل، وأسماعَهم لا تدرك، قال قتادة: يسمعون بآذانهِم، ولا يعون منه شيئًا، كمثل البهيمةِ الَّتي لا تسمعُ النِّداء، ولا تدري ما يُقال لها[2].

من لا قلبَ له؛ فهو كالأنعام السَّائمةِ، أو أقلُّ شأنًا

دلالةُ اختيارِ ﴿أَكِنَّةً﴾ دون (أَغطيةٍ) في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾:

اختار القرآنُ الكريم (الأكنَّة) دون الأغطيةِ، وإن كان بينهما اشتراكٌ في المعنى، إلّا أنَّ الأكنَّة أبلغ في هذا المقام؛ لأنَّها تعني: الغطاءَ السّاتر؛ فكأنَّ القلبَ داخلٌ في هذه الأكنَّة؛ بخلاف الغطاء فلا يلزم منه ذلك، أيضًا أنَّ الأكنَّة تُستعمل في الغالب في المعاني النَّفسيَّةِ، مثل قوله تعالى: ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: 235]، وأيضًا لأنَّ الأكنَّة تفيدُ سترَ الشَّيء ووقايتَهُ بخلاف الغطاء.

صُوَرُ القرآنِ البيانيَّةُ تقرِّب المعنى، وتجلِّي الدَّلالة

دلالةُ اختيارِ جمع (أكنَّة) دون غيرهِ، من بلاغةِ القرآنِ:

اختارَ القرآنُ الكريمُ هذا الجمع الَّذي مفرده (كِنان)، يُجمع على أكنَّةٍ في القلَّةِ والكثرة؛ لتضعيفه، وذلك أنَّ فَعالًا وفِعالًا بفتح الفاءِ وكسرها يجمع في القلَّة على أَفْعِلة، وفي الكثرة على (فُعُل) إلّا أن تكون مضاعفًا؛ مثل (كنان) أو معتلَّ اللّام: كخِباء؛ فيلزم جمعهُ على أفعِلة، ولا يجوز جمعُه على فُعُل إلّا في القليل النّادر[3].

القرآنُ يختارُ الأفصحَ في الجُموعِ الصَّرفيَّة في الاستعمال

(1) رضا، تفسير المنار: 7/290، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/13، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/88.
(2) القنّوجيّ، فتح البيان: 4/122.
(3) السّمين، الدّرّ المصون: 4/577.

دلالةُ اختيارِ لفظ (الفقه) دون لفظِ (الفهم):

الفقهُ: العلمُ بالشَّيء، وإدراكُ دقائقِه، والفهمُ: سرعةُ الإدراك لحقائقِه

آثرَ التَّعبيرَ بالفقه؛ لأنَّه أبلغُ، فالفقه: العلمُ بالشَّيء، وإدراكُ دقائقِه، وعلى هذا فإنَّ الفقه يحمل معنى طولِ النَّظر، والتَّأمُّل، وعمق الاستيعابِ للجوانب الخفيَّةِ والغامضة، ولذلك لا يقال للرَّجل: فقيهٌ، حتَّى يبلغ مبلغًا عظيمًا منَ العلم، يؤهِّله لاستنباط الأدلَّة، ومن هنا استخدمَ القرآنُ لفظ الفقهِ في القضايا الدَّقيقة، مثل: قضايا الأرزاق، وتدبيرِ الأمور؛ فقال عنِ المنافقين عندما ذكرَ القرآن عنهم: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ﴾ [النّساء: 78]، فما أدركوا أنَّ الأمورَ كلَّها بيدِ الله، بدليل قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [النّساء: 78]، وكان تعقيبُ القرآن على موقفهم بقوله: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾ [النّساء: 78]، وقال - أيضًا - في حقِّ المشركين: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [الإسراء: 46]، فلم ينفِ عنهم صفةَ الفهم، بل نفى عنهم الفقه؛ لأنَّ لهم عقولًا يدركون بها أسرارَ القرآن الكريم، ولكنَّ أهواءهم حرمَتْهم من هذا الفقه، وطول النَّظر؛ لذلك آثرَ القرآنُ استعمالَ الفقه في هذه الآية، أمّا الفهمُ؛ فوَرَد في سورة الأنبياء في قصَّة سليمان وداود ﷺ في قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ [الأنبياء: 79]؛ فالملاحظ استعمالُ الفعل (فهَّمنا) دون (فقَّهنا)؛ لأنَّ داود وسليمان ﷺ كليهما، كانا فقيهين بدليلِ ختام الآية: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ [الأنبياء: 79]، لكنَّ سُليمان - ﷺ - كان أسرعَ إلى إدراك القضيَّة، والبتِّ فيها، وعلى هذا؛ فالفهم يدلُّ على سرعةِ الإدراك، وإن كان ذلك من بابِ الإلهام منَ الله لسيِّدنا سليمان ﷺ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالضَّميرِ في قوله تعالى: ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾:

القرآنُ مصدرُ الفقهِ، ومنبعُ الأحكامِ

عبَّر بالضَّمير المنصوب في ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾؛ لأنَّه عائدٌ إلى القرآنِ المفهوم من قوله: ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ﴾، ويجوز عَوْدُ الضَّمير على

حديثه ﷺ، "ومعنى أَنْ يَفْقَهوهُ، أي: كراهة أن يفهموا ببواطن قلوبهم بواطنَهُ الَّتي بها إعجازهُ وإرشاده، بإقامة الدَّلائل ورفعِ الشُّبَه"[1].

دلالةُ اختيارِ (الوقر) دون الصَّممِ في قوله: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا﴾:

الوَقرُ إبانةٌ عن مبالغةِ المشركين في الإعراضِ عن القرآنِ

اختار القرآنُ الكريم (الوَقْرَ) لما فيه منَ الجمع بين الصَّمم والثِّقل، من قولهم: أوقرتُ ظهرَهُ، أي: أثقلتُه، وعلى هذا فالوَقْرُ هو المناسب لهذا السّياق؛ لأنَّه يشير إلى المبالغة المفرطة منَ المشركين في الإعراض عنِ القرآن، وأيضًا؛ لأنَّ الأذنَ توصفُ بأنَّها صمّاء، ولا توصف بأنَّ فيها وقْرًا إلّا على وجه المبالغة، وهذا واضحٌ في حديث القرآن عنِ المشركينَ، عندما تُتلى عليهم الآيات: ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗا﴾ [لقمان: 7].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (إنْ) في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا﴾:

مَن عَمِيَ بصرُهُ عن الحقائقِ؛ انطمسَتْ بصيرتُه عن هُدى الخالقِ

عبَّر بـ (إن) الدّالَّة على الشَّكِّ، وعدمِ الوقوع؛ لأنَّ رؤيَتهم لكلِّ الآية لم تقع، وإنَّما الواقع رؤيتُهم لبعضها[2]، وفيه زيادةٌ في التَّشنيع على المشركين، بأنَّهم لا يؤمنونَ إلّا بالمسموع أو بالمرئيِّ، وفي الآية "إشارةٌ إلى أنَّه لا يختصُّ ما ذكر منهم بالقرآنِ، لرؤيتهم قصورًا فيه، بل مهما يروا من الآياتِ والحُجج، ممّا يدلُّ على صدق الرَّسول لا يؤمنوا بها، ويحملوها على السِّحر لفَرْطِ عنادهم، واستحكامِ التَّقليدِ فيهم، فلا فَهْمَ عندهم ولا إنصافَ"[3].

دلالةُ الجملةِ الشَّرطيَّةِ في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا﴾:

الكفَّارُ لا ينتفعون بما سمعوا من رقائقَ، ولا ما شاهدوا من حقائقَ

المقصودُ منَ الجملةِ الشَّرطيَّة في الآيةِ الإخبارُ عنِ المبالغة التّامَّة، والعِنادِ المفرط في عدم إيمانهم، حتَّى إنَّ الشَّيء المرئيَّ الدّالَّ على صدق الرَّسولِ حقيقةً، لا يرتِّبون عليه مقتضاه، بل يرتِّبون عليه ضدَّ مقتضاه[4].

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/336.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/149.
(3) القاسميّ، محاسن التأويل: 2/149.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/470.

المرادُ منَ الرُّؤية في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَاۖ﴾:

دلالــةُ التَّعبير بالرُّؤية في الآية الفارطةِ

المرادُ منَ الرُّؤية هنا البصريَّة، ومنَ الآياتِ المعجزات الحسّيَّة كانشقاقِ القمر، ونبعِ الماء من بين أصابع النَّبيِّ ﷺ الشَّريفة، وقد دلَّ التَّعبير على أنَّ هذه الجملةَ الكريمة المقصود بها ذمُّهم لعدم انتفاعهم بحاسَّة البصرِ بعد ذمِّهم لعدم انتفاعِهم بعقولهم وأسماعهم.

التَّعبيرُ بالآيةِ دونَ المعجزةِ في قوله: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَاۖ﴾:

وفي كلِّ شيءٍ له آيــةٌ، تــدلُّ على أنَّه الواحدُ

لأنَّ لفظ الآية أعمُّ؛ فيشمل الآياتِ الكونيَّةَ والشَّرعيَّة والمعجزات، والمعنى: أنَّهم إذا رأوا أيَّ آيةٍ من هذه الآيات الدّالَّة على الوحدانيَّة، وصِدْقِ الرِّسالة لا يؤمنون بها لفرطِ عنادهم، والمعْنى: "وإن يروا كلَّ آيةٍ من الآياتِ الدّالَّة على صحَّة نبوَّتِكَ، وصدقِ دعوتِك، وحقيقةِ ما تدعو إليه، لا يؤمنوا بها؛ لأنَّهم لا يفقهونها، ولا يدركون كُنْهَ المراد منها، لعدم التَّوجُّه، أو لوقوف أسماعهم عند ظواهرِ الألفاظ"[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بنفي الإيمان بدلًا مِنَ الكفر في قوله: ﴿لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَاۖ﴾:

أدبُ القرآنِ في تأليفِ القلوبِ، وجذبِها للحقِّ، أسلوبٌ متفرِّدٌ

آثرَ التَّعبيرُ القرآنيُّ نفيَ الإيمان دون أن يصفَهم بالكفرِ، مع وجودِه؛ لفتحِ الباب للدُّخول في الإيمان، وكأنَّ الآية تشير إلى أنَّ بعضَهم مؤهَّلٌ للإيمان بهذه الآيات، وهذا ماحدثَ في فتح مكَّةَ، فقد آمنَ الكثيرُ من عُتاة قريشٍ، وانقادوا للإسلام، وهم في قرارةِ أنفسِهم، كانوا يرون الحقَّ ناصعًا، ولكنَّهم يُكابِرون ويجحدونَ، وبقيتِ الفئةُ المذكورة في هذه الآية تعاندُ الحقَّ إلى آخرِ رَمَقٍ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ﴾:

حرف (حتَّى) موضوعٌ لإفادةِ الغاية، أي: إنَّ ما بعدها غايةٌ لما قبلَها، وأصل (حتَّى) أن يكونَ حرف جرٍّ مثل (إلى)، فيقع بعده اسمٌ مفرد مدلولُه غايةٌ لما قبل (حتَّى)، وقد يعدل عن ذلك، ويقع

(1) رضا، تفسير المنار: 7/290.

بعد (حتَّى) جملة، فتكون (حتَّى) ابتدائيَّةً، أي: تُؤْذِنُ بابتداءِ كلامٍ مضمونُه غايةٌ لكلامٍ قبل (حتَّى)؛ ولذلك قال ابن الحاجبِ في الكافية: إنَّها تفيدُ السَّببيَّة[1]، فليس المعنى: أنَّ استماعَهم يمتدُّ إلى وقت مجيئهم، ولا أنَّ جَعْلَ الأكنَّة على قلوبِهم، والوَقر في آذانهم، يمتدُّ إلى وقت مجيئِهم، بل المعنى: أن يتسبَّب على استماعهم بدون فَهْم، وجعل الوقرِ على آذانهم، والأكنَّة على قلوبهم، أنَّهم إذا جاؤوك؛ جادلوك[2].

المجادلةُ رمزيَّةٌ للصِّراعِ بين الحقِّ والباطلِ في مكابرةٍ وعنادٍ

سرُّ التَّعبير بـ ﴿إِذَا﴾ بدلًا من (إن):

في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ﴾ عبَّر القرآن الكريم بـ ﴿إِذَا﴾ الَّتي تفيدُ تحقُّق الوقوعِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ النَّبيَّ ﷺ عَرَض عليهم الدَّعوةَ، وقدَّم لهم الأدلَّة على صدقِ دعوته ﷺ؛ فقابلوا ذلك بالجدالِ والخصام، وجاؤوا مجادِلينَ للرَّسول بِصَفاقَةٍ وجُرأةٍ، يُكابِرون في الحقِّ، ويَصِمون النَّبيَّ المرسَل والكتابَ المنزَلَ بما لا يعقله عقلٌ، ولا تقبله فطرةٌ.

جدالُ الكفَّارِ مبالغةٌ في الإنكارِ

سرُّ التَّعبيرِ بالفعل الماضي ﴿جَآءُوكَ﴾ دون (أتوك):

عبَّر بالفعلِ الماضي ﴿جَآءُوكَ﴾ الَّذي يفيد تحقُّق الوقوعِ دون أَتَوْك؛ لبيانِ أنَّ مجيئَهم لم يكن لطلب الهدى، ولا لاتِّباعه ﷺ، بل مَجيءَ تحدٍّ واستكبارٍ، يؤكِّد هذا أنَّ المجيءَ في أصل اللُّغة يحمل معنى الصُّعوبة المادِّيَّة والمعنويَّة، بخلاف أَتَوْك؛ ففيه سهولةٌ ولينٌ، وليس هذا من شأنِ المشركين، وقد عبَّر السِّياق بـ ﴿جَآءُوكَ﴾ للإشارةِ إلى أنَّ المشركين كانوا على عداءٍ للنَّبيِّ ﷺ من قبلُ، ثمَّ جاؤوه، ولم يكن مجيئُهم إذعانًا للحقِّ، ولا طلبًا لحقيقةٍ، بل كان مجيئهم تحدِّيًا للرَّسول، ومبالغةً في الإنكار، واستهانةً بالقرآن الحكيم، وهو الآية

كانَ اختيارُ لفظِ المجيءِ أوفقَ لِحالِهم في تطلُّبِ الجدالِ

(1) ابن الحاجب، الكافية في علم النّحو، ص: 45.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/181.

الكبرى؛ ولذا قال الَّذين كفروا: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٥﴾ [الأنفال: 31][1]، ومباشرةُ الفعل الماضي بالمضارع يُشْعِرُ بحدَّة الحوارِ، وسوءِ أدبهم مع رسول الله ﷺ.

المجادلةُ مطلَقُ المنازعةِ من خلال قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ﴾:

دلالـةُ اختيـارِ لـفـظِ الـجـدالِ دون الـحـوارِ، أقربُ إلى طبيعةِ الفاعلين

اختار الجدالَ لأنَّه في أكثر أحواله تمويهٌ، وليس طلبَ حقٍّ، والمجادلةُ مُطلَقُ المنازعة، وسُمّيت بذلك لما فيها منَ الشِّدَّة، أو لأنَّ كلَّ واحدٍ منَ المتجادلين يريد أن يلقيَ صاحبه على الجدالة، أي: الأرض[2]. فجاء اللَّفظُ مناسبًا للسّياق دون الحوار؛ لأنَّ مشركي مكَّةَ جاؤوا مجادلين للرَّسول ﷺ؛ ليُظْهِروا لقومهم أنَّهم على خبرةٍ بأسلوب الجدالِ، وأرادوا إنهاءَ دعوته ﷺ عن طريقِ الجدال الَّذي لا ينتهي إلى الحقِّ، بل هو سبيلُ الباطل، بخلاف المحاورة؛ فَيُلمَحُ فيها الهُدوءُ للوصول إلى الحقِّ.

سرُّ التَّعبيرِ بالمضارع بدلًا منَ الماضي في قوله: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾:

العنادُ واللَّجاجُ في الـجـدال دَيْدَنُ المجادِلين بالباطلِ

عبَّر بالمضارعِ مع سبقِ التَّعبيرِ بالماضي ﴿جَآءُوكَ﴾؛ ليشير إلى استحضارِ صورةِ المجادَلة؛ فكأنَّك ترى صورةَ المجادَلة أمام عينيك، رسولُ الله يدعوهم، وهم يطلبون منه مجادلين آياتٍ سبق الحديثُ عنها في أوَّل السّورة، من نزول مَلَكٍ منَ السَّماء أو من كتاب يقرؤونَ فيه نبوَّتَه ﷺ.

بلاغةُ العدولِ في قوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾:

مَـن جـادلَ بـالـبـاطـلِ لإدحاض الحقِّ، فهو إلى الكفر أقربُ

في الجملة عدولٌ عنِ الإضمار إلى الإظهار، حيثُ قال: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، ولم يقُل: (يقولون)؛ لزيادة التَّسجيل عليهم بالكفرِ، وأنَّهم ما جاؤوا طالبين الحقَّ كما يدَّعون، ولكنَّهم قد دخلوا بالكفر وخرجوا به، فيقولون: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ فهم قد عدلوا عنِ الجدل إلى المباهَتةِ والمكابرة[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2473.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 4/119.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/181 - 182.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ في قوله: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾:

والتَّعبيرُ بالفعل المضارع (يقول) أفادَ معنى الاستمرارِ على صفتِهم وطريقتِهم في القول وغيره، وفيه إشارةٌ إلى علوِّ صوت الكافرين وقوَّتِهم، وتَكرارِ هذا القول كلَّما استمعوا للقرآنِ، وهم في تلك الغَطْرسة الزّائفةِ، لايعرفون للّه وقارًا، ولا للرَّسول اعتبارًا، بل كانوا يرفعونَ عقائرَهم بالكُفْران، ويجاهرونَ الدّين بالنُّكران، يُسوِّغون ذلك بتسويغاتٍ واهيةٍ، تدلُّ على سذاجةٍ وقصور نظرٍ، وسوء خُلقٍ.

مَـــن عـــرف الحقَّ، ونـاوأه، ونـــاورهُ؛ كـان مـن الخاسرين الهالكين

بلاغةُ قَصْرِ القلبِ في قوله: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

في الآية قَصْرُ قلبٍ؛ لأنَّ الكافرين عندما سمعوا القرآنَ الكريمَ قالوا لرسول اللّه ﷺ: إنَّ ما تقوله - يا محمَّد - ليس وحيًا سماويًّا منَ اللّه، وإنَّما هو أساطيرُ الأمم الغابرة؛ وبذلك فقد قَلَبوا الحقيقةَ في قولهم هذا، ومعناه: "إنْ هذا إلّا أَساطيرُ الأَوَّلينَ، فيجعلون كلامَ اللّه وأصدقَ الحديث خرافاتٍ وأكاذيبَ هي الغاية في التَّكذيب"[1].

الـقَـصْـرُ بـابٌ واســـــعٌ في البلاغةِ، يُضْفي عـلى الـسِّـيـاق جمالًا وانسجامًا

موقعُ الفاصلةِ في السِّياق في قوله: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

جاءتِ الفاصلةُ هنا ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، جملةً مبيِّنةً للجدل الَّذي يخوضون فيه عند استماعِهم للقرآن، وجملةُ مقول القول اسميَّةٌ، وهي تفيدُ الحَصْر والقَصْر، فهم قد قصروا ما يستمعون منَ الآيات، على أنَّها لا تخرجُ عن كونِها من أساطير الأوَّلين.

جـمـلـةُ مـقـولِ الـقـولِ اسميَّةٌ، وهـــي تـفـيـدُ الحصرَ

دلالةُ إظهارِ الفاعلِ في قوله: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾:

أُظهِرَ الفاعلُ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ مع أنَّ حقَّه الإضمارُ؛ وذلك لبيان أنَّ كفرَهم هو سبب هذا القول، والمقصودُ نخبةٌ من عُتاة

مَن جادلَ النَّبيَّ هـو الـمـقـصـودُ بالَّذين كفروا

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/14.

قريش، "بَلَغ تكذيبُهم الآياتِ إلى أنَّهم إذا جاؤوك يُحاجّونك، ويناظرونك في الحقِّ بالباطلِ، ثمَّ فسَّر المجادَلة بقوله: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، أي: أباطيلُهم وأحاديثُهم الَّتي لا نظام لها"[1].

مناسبةُ الفاصلةِ لصدر الآيةِ الكريمة:

المناسبةُ بين مطلعِ الآيةِ ونهايتِها، دليلٌ على تماسكِ السِّياق وتكاملِه

أمّا مناسبةُ الفاصلة؛ فبيَّنت الآيةُ حال المشركين حين استماعِ القرآن، وأنَّ هناك ما يمنعُ من أن يفقهوه، وجاءتِ الفاصلة تؤكِّد على أنَّهم بالفعلِ لم يفقهوه، فوصفوه أنَّه من أَباطيلِ الأمم الغابرةِ وخرافاتِها.

اتِّهامُ القرآنِ بأساطيرِ الأوَّلين كفرٌ صُراحٌ:

سرُّ إيثارِ الكفَّارِ لوصفِ القرآنِ بأساطيرِ الأوَّلين

أراد المشركونَ بهذا الوصفِ نزعَ القداسةِ عنِ القرآن، حتَّى يطعنوا في نبوَّةِ النَّبيِّ ﷺ، ويُعلِنوا لأتْباعِهم أنَّه من كلام البشر، وهذا أسلوبُ المعاندين عندما يعجزونَ عن إقامة الحُجَّة؛ فلا تجدُ منهم إلّا المكابرةَ والمغالطةَ.

دلالةُ الإفرادِ والجمعِ في ما يشابهُ آيةَ الأنعامِ في سورة يونسَ:

قال تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [يونس: 42]، وللسّائلِ أن يسألَ عن قولهِ تعالى: ﴿مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ﴾ في آية الأنعام، وتوحيدِ الضَّمير العائد إلى (مِن) حملًا على لفظها؟ وعن قوله: ﴿مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ﴾ في آية يونس، وجمع الضَّمير العائدِ إلى (مِن) حملًا على معناها؟ ولماذا اختصَّ الأوَّل بالتَّوحيدِ، والثّاني بالجمعِ؟ والجوابُ أن يُقال: إنَّ لكلٍّ منَ الموضعين ما يوجبُ اختصاصَه باللَّفظ الَّذي جاء فيه، فأمّا قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ﴾ فقد قيل فيه: إنَّه في قوم منَ

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/336.

الكفّار كانوا يستمعون إلى النَّبيِّ وإلى قراءتهِ باللَّيل، كأبي سفيانَ والنَّضرِ بن الحارث وعتبةَ وشيبةَ وأميَّةَ وأبيِّ بنِ خلفٍ، فلم يَكْثُروا كثرةَ مَن في سورة يونسَ؛ لأنَّ المراد بهم في سورة يونسَ جميعُ الكفّار، فَحُمِل ههنا مرَّةً على لفظ (مِن) فوحَّد لقلَّتهم، ومرَّةً على المعنى فجمع؛ لأنَّهم وإن قلّوا كانوا جماعة، وجمع ما في سورة يونسَ ليوافق اللَّفظُ المعنى[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الاستماع)، و(السَّماع)، و(الإصغاء)، و(الإنصات):

المعنى الدِّلاليُّ لكلِّ لفظٍ، تُحدِّدُهُ الحالةُ والآلةُ في وضعيَّاتِ الاستماع

السَّمع: هو إدراكُ المسموع، والسَّمع: أيضًا اسمُ الآلة الَّتي يُسمعُ بها، والإصغاء: هو طلبُ إدراك المسموع بإمالةِ السَّمع إليه، يُقال: صغا يصغو؛ إذا مالَ وأصغى إلى غيره، ويُقال: استمع لما كان بقصدٍ؛ لأنَّه لا يكون إلّا بالإصغاء، وهو الميلُ، وسَمِعَ يكون بقصدٍ، وبدونه[2].

إضافةً إلى ذلك أنَّ الإنصاتَ سكوتٌ مع استماعٍ، ومتى انفكَّ أحدهما عنِ الآخر؛ لا يُقال له: إنصاتٌ، وعليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ [الأعراف: 204][3].

(الوَقْر) و(الصَّمم):

الوَقر: الثِّقل في الأذن، لعلَّ أصله مادّيٌّ مِن تراكم قذى الأذنِ فيها، حتَّى يسدَّها، ثمَّ صار كنايةً، ومنَ المادّيِّ الوَقْر - بالفتح - : الصَّدعُ في السّاق، والعظم، والحَجَر، والحافِر، لعلَّه نُظِر إلى أنَّه لا يحدث إلّا من ضغط أو صدم ثقيل، ومنَ الثُّقل الذّاتيِّ المادّيِّ يأتي الثُّقل المعنويُّ؛ الوَقارُ: الحِلم والرَّزانةُ (الثقل)، وكذلك معنى

الوَقر: الثِّقلُ في الأذنِ، ثمَّ صار كنايةً، والصَّمم: فقدانُ حاسَّة السَّمع

(1) الإسكافّي، درّة التّنزيل: 2/505 - 506، والكرمانّي، البرهان في متشابه القرآن، ص: 106، والآلوسّي، روح المعاني: 4/118.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 245 - 248.

(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 22/43، وزكريّا الأنصاريّ، الغرر البهيّة: 2/28.

العظمةِ من لازم الثُّقل، ومن هنا دلَّ الوقارُ على العِظَم المعنويِّ ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح: 13]، لا تخافون للّهِ عظمةً. والصَّمم: فقدانُ حاسَّة السَّمع، وبه يوصفُ مَن لا يُصغي إلى الحقِّ ولا يقبلهُ، قال تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: 18]، وقال: ﴿صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ [الفرقان: 73]، وأصله انسدادُ مسامِّ الشَّيء مع صلابةٍ، فلا ينفذُ فيه أو منه شيءٌ - كما في القناةِ الصَّماءِ المكتنز جوفها[1].

(1) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وقر - صمم).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العاشر، سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 10 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-62-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 10 : سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-62-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7560922 بتاريخ 2023/12/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»